

# المسحاة

فبشر عسادي الدين يستمعون القول  
فيتمون أحسنه أولئك الذين هداهم  
الله وأولئك هم أولو الألباب

بموتى الملكة من يقاه ومن يقوت الملكة  
فقد أوتى خيرا كثيرا وما به  
الإلا أولوا الألباب

١٣١٥

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام سوي « ومانرا » كثار الطريق —

٢٩ ذي القعدة ١٣٣٩ - ١١ الاسد (ص ٢) سنة ١٢٩٩ هـ ش ٢ أغسطس سنة ١٩٢١

## الخيال في الشعر العربي

٦

### الغرض من التخيل

عادة النفس الارتياح للأمر تشاهده في زي غير الذي تمهده به ، والتخيل يأتيها من هذا الطريق فيعرض عليها المماني في لباس جديد ويجليها في مظهر غير مألوف

فللتخيل فائدة عامة لا تتخلى عنه وهي تحريك نفس السامع لتلقى المعنى بأرتياح له واقبال عليه ولو كان من قبيل الحديث المألوف أو المعلوم بالبدهة . والنظر ان رمت الثقة بهذا الى قول الشاعر

أخذنا باطراف الاحاديث بيننا وسالت باعناق المعنى الإباسح  
فالمعنى الذي صبغ البيت لتأذيتنا أخذنا تتناوب الحديث والإبل لتسير  
(المنار: ج ٧) (٦٢) (المجلد الثاني)

مسرعة في الاطاح . وهذا كما رأيت معنى مبذول وحديث لا يختص به طار  
سبيل دون آخر ولو لا ان الشاعر اورد في هذه الصورة التي خيلت اليك بطا  
تندفق بسيل من اعناق المطايا لم ينل عندك هذا الموقع من الخطوة والامتحان  
قد يكون للمنى في ذاته وجه يدهو تنس السامع الى التنوير عنه ، وصناعة  
التخيل تبقي له أثر الديدان في النفس فتأتيها اللذة من ناحية غير الناحية التي  
يجي منها التنوير ، فلو سمع اشياخ ابن بنية قول عمارة اليميني شامتاً به وهو مصلوب  
ونكس رأسه لمتاب قلب دعاه الى الفوابة والضلال

لوجدوا لهذا البيت في أنفسهم ألماً بليفا يدخل عليها من جهة القدرح في  
كرامة رجل امتلأت صدورهم باجلاله ، وهذا الالم لا يمنع من ان يبقى للبيت  
في نفوسهم أثر لذة تسرى اليها من جهة التخيل وان كانوا لها كارهين . وما  
قلت في بعض الخطرات : قد يهذب السياسي حاشية ظله فيكون كالبيت البليغ  
يؤثر في نفس من يهجي به لذة وألماً

قد يبدو لك ان هذه الفائدة العامة انما تتحقق فيما اذا كان المنى معروفاً  
للسامع من قبل التخيل كوصف حال القمر والكواكب والبرق والسحاب  
والرياض والانهار ، والمقلة والشمر والقلم والدواة ، او حال الرجل من كرم وشجاعة  
وعظ وغيرها من الخصال اذ يصح ان يقال ان التخيل قد مرض على السامع  
هذه المعاني في صور حديثة . واما الوقائع والاحوال المجهولة فلم يعرفوا لها  
صورة من قبل حتى تعد الصورة الخيالية جديدة وتحدث في النفس لذة زائدة  
من لذة العلم بأصل المنى

والجواب ان المنى الذي تتلقاه من الشاعر دون ان تسبق لك معرفة به  
قد يلقيه اليك بوجه صريح ثم يدخل به في الخيال كما هي الطريقة الشائعة في  
التشبيه والتمثيل ، وعد التخيل في هذا صورة جديدة بالنسبة الى الصورة التي  
تقبلها التصريح أولاً مما لا تستريك فيه شبهة

وقد يلقيه لأول الخطاب في صورة خيالية وهذا مما يصح عده في الصور  
المتشعبة اذ للمعاني صور اصلية وهي التي ترسم في النفس لأول ما تدرك  
للمنى بمفاهمة او وجدان فالنفس تشر حال تلقيها للصورة الخيالية ان للمنى  
الذي تحمله اليها صورة أخرى هي الصورة البسيطة التي يمر عنها القول الصريح  
وليك قول بصد هذا ان صور المعاني تختلف ما اختلفت العبارات

سواء كانت تصريحية او تخيلية فالصورة التي يعطيها قولك: زيد يكتب غير الصورة التي يفصح عنها قولك زيد يخط بالقلم على القرطاس ، وكل منهما صريح لا مدخل فيه للتخيل واذا كان التخيل يلذ للنفس من جهة انه يكسر المعنى لباساً جديداً فيمكن لنا ان نصوغ للمعنى عبارة صريحة غير التي يعرفها المخاطب فيأخذ بها صورة جديدة، ولا يفوز التخيل بهذه الفائدة ويختص بهادون التصريح والجواب ان الصور التي تنشأ من العبارات الصريحة وان تفاوتت في مواقع البلاغة واختلفت بالايجاز والاطناب لا تمد كما تمد الصورة الخيالية غريبة عن المعنى المراد، الا ترى انك ترض المعنى الواحد في صور خيالية متعددة والضمير واحد فيجد السامع عند كل صورة داعية لذة ، ولو اقيمت المعنى في عبارة صريحة ثم بدالك ان تخرجه في عبارة أخرى تشاكلها في الصراحة والمخاطب وأحد لقيت في نفس المخاطب سامة لانك لم توافقها بصورة غريبة تخيل بها انك تعبر عن معنى غير ما أقيمت عليها أولاً

فلا انكر ان الصور في العبارات الصريحة تتفاوت بحسب اختلاف العبارات في كيفية تأليفها ومقدار ما يشتمل عليه من المعاني الزائدة عن اصل المراد وان هذا الاختلاف هو الذي يجعلها متفاضلة في مقامات البلاغة وانما اذهب الى ان تلك الصور وان احكت فسقتها واصنت اليها من المعاني ما يرتفع به شأنها لانه في نفس السامع هزة الطرب التي تثيرها العبارات الخيالية فالعبارات الخيالية تشارك العبارات الصريحة في جودة نسجها واشتمالها على المعاني التي ترتقي بها في مدارج البلاغة ويزيد عليها بآراء تلك المعنى في صورة بدئية تتمشقا للنفس وتهتز لوقعها طرباً

ثم ان التخيل لا يخلو في أكثر احواله من صوغ المعنى في صورة ما تكون معرفة المخاطب له أقوى وفهمه اليه أسرع ، وهذا مما يجعل الناس النفس أوفر ، وارتياحها له أكمل

ولا احسبك تعلم من هذا الوجه في شبهة او تقف في حيرة حين ترى الوجه السابق يقتضي ان لذة التخيل جاءت من غرابة الصورة وهذا يقتضي ان ابتساط النفس لها جاء من جهة ألفها وكثرة التردد عليها فان غرابتها بالنظر الى المعنى المراد لاننا في ان تكون معرفتها بهياتها او عناصرها اجل لدى المخاطب في ذاتها . فالشاعر الذي يقول

كان شعاع الشمس في كل غدوة على ورق الاشجار اول طالع  
 دنانير في كف الاشمل يضيها لقبض فبهوي من فروج الاضالع  
 قد خيل اليك حال تدفق الاشعة وقت الغداة وتجليها على الاوراق في صبغتها  
 الصفراء في صورة دنانير يضم عليها الاشمل يده ليقبض عليها فتسابد من بين  
 أصابعه متساقطة الى الارض . وهذه الصورة بالنظر الى مسلك الحديث وهو  
 حال الاشعة غريبة ولكنها في نفسها جليلة اذ السامع للبيتين وان لم ينظما من  
 قبلها دنانير تتناثر من يد الاشمل فان المواد المؤلفة منها الصورة كلالا انير ويده  
 المرتعش من اوضح معلوماته

وللتخيل بمد هذا اغراض خاصة يرمي اليها الادباء ويتفاوتون في التمكن  
 منها ولا يسر هذا المقال سوى ان نذكر بمهاتها فنقول  
 قد يقصد الشاعر من التخيل تقوية الداعية الى الاخذ بالثبوت حيث يصوره  
 بصورة مالا يستغنى عنه كما قال بشار

فلا تجمل الشورى عليك غضاضة فان الخواقي قوة القوادم  
 ضرب المثل للشورى في تثبيت الرأي واقامته على وجه السداد بالخواقي  
 من الجوامع حيث تساعد القوادم على الطيران ، وهذا التمثيل يلقي في نفس  
 السامع انه محتاج الى الشورى حاجة القوادم الى الخواقي ويؤكد داعيته الى  
 العمل على سنتها او الحث على الثبات والصبر على الامر حيث يخرج في مثال  
 مالا يمكن بطبيعة هذه الحياة الخلاص منه كما قال بشار ايضا

اذا كنت في كل الامور معاتبيا صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه  
 فمش واحدا او صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه  
 اذا انت لم تشرب مراهرا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه  
 فالايات موقوفة في الإرشاد الى تحمل ما يصدر عن الاخوان من جفاء او  
 هفوة فضرب لهم المثل بالشارب حيث لا مندوحة للانسان عن ورودها وهي  
 لاتصفو له سائر حياته بل يصادفها في بعض الاحيان كاشفة له عن وجه كالح  
 وماء كدر، يلجئه الظما الى الشرب منها، واغضاه الجفن عن اقتدائها، فهذا  
 التمثيل يريك انك لاتستطيع ان تعيش مستقلا عن الاخوان وان ليس في طبيعتهم  
 ان يسروا في مرضاتك بحيث لاتلاقي منهم طول حياتك الا ما يلائم طبيعتك  
 ويوافق بفتيتك، ومقتضى هذا ان تمد يدك بعري صحتهم وتقضي عما يمرض

لم في بعض الاوقات من جناء او يزولن فيه من عثرات  
او التحذير. مما يرغب فيه كما قال ابو نواس

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

لو ذهب الى ذم الدنيا صراحة وهي حلوة خضرة لم يأخذه السامع بما أخذ التسليم  
والكفران يكون في لذيقها المذاق جميل المنظر ما يجب الحذر منه فعدل الى اخراج  
الذم في مثال يرسمه كيف يتزى الشريزي الخير ويظهر المؤذي في بهيمة ما يمد فافهام  
او تخفيف الرغبة فيه وتقليل الاهتمام به كما قال المعري

وان كان في لبس القمي شرف له فا سيف الا غمده والحمائل

فن تمثلت له الملابس بمنزلة الغمد والحمائل من السيف لم يطمح بنظره الى  
تنسيقها او مجهد سميح في اتخاذها من النسيج الفاخر وانما يصرف همه الى  
ما تسمو به النفس من علم وفضيلة كما ان البطل لا يمسأ بالغمد والحمائل وانما يقبل  
على السيف فينتفق وسعه في اجادة صنعه وارهاف حده

او التلمية كقول صاحبنا الامير شبيب يسلي البارودي وهو في المنفى

ان يحجبوك فما ضر التجوم دجى ولا زري السيف يوما ملي اغمد

الاباس ان طال نجر السم موعده فاعذب الماء شربا في فم الصادي

اراد ان ينفث في نفس مراسله كلمة تحمل منها عقده الضجر وتطرد عنها  
غم الوحشة فذكره بأن ماجرى عليه من التفرير والاحناء من أعين من القوم  
والفهم قد ابتليت بمنته الكواكب فلم يمسا بنقيصة ومنيت به السيوف فلم  
يضع من قيمتها فتلا . ورام بمد هذا تخفيف ماعناه ان يساور قلبه من لوعة  
الحنين الى الوطن، والهوى بما سال عليه من الامد، فافهم له مثالا من حل الماء  
حيث يكون مذاقه في فم من بمد عهده به - وهو الطمان - الذواشحي

ومما صنعت في غرض التلمية

بنثت شعاع علمك في نفوس تسوق اليك ما استطاعت خسوفاً

كذا الاقمار تكسو الارض نورا ولولا الارض ما لقيت خسوفاً

او ازالة ما يخالف النفس من النور عن الامر او عده عيبا كما قال الفرزدق

تفارق شيب في شباب نواع وما حين ليل ليس فيه نجوم

ضرب المثل بنشر الاسود تتخلله شعرات من الشيب بحال ليل داج تتألق

في سمائه الكواكب ليخيران الشيب مما يحدث في الخلقه حسنا ويريد هابهجة

حتى يضع الانس به مكان التجافي عنه . ومن هذا القبيل قول قابوس  
 ياذا الذي بصروف الدهر غيرنا هل عائد الدهر الا من له خطر  
 أما ترى البحر تطفر فوقه جيف وتستقر بأقصى قمره الدرر  
 وفي السماء نجوم لاعداد لها وليس يكسف الا الشمس والقمر  
 او الدلالة على ان الذي تحكى عنه صفة قد بلغ فيها غاية قصوى لتستدعي  
 له في نفس المخاطب اجلالا واشفاقا او تحقيرا له او جفاء عنه ، ويرجم الى هذا  
 الفرض كثير من التخييلات الواردة على طريق المبالغة في المديح والتعزير والاعتذار  
 والمجاء والوشاية وامثلها كثيرة الدوران في كتب الادب والبيان  
 وقد يكون المعنى مما لم تتداوله الافكار وليس من البعيد ان يلاقه  
 المخاطب بالتعجب الذي هو مطية الانكار ، فيجيبه التخييل عقب هذا لازالة  
 التعجب منه ويبان ان وقوعه داخل في حوزة الامكان وهذا كما يقول أبو  
 تمام الاندلسي

لايفخر السيف والاقلام في يده قد صار قطع سيوف الهند للقصب  
 فان يكن أصلها لم يقو قوتها فان في الحمر معنى ليس في العنب  
 ادعى في البيت الاول ان القطم الذي عهدت به السيوف قد انتقل الى  
 الاقلام التي تهزها يد ممدوحه فلم يبق للسيوف خلة تفاخر بها ، وليست هذه  
 الدعوى من الجلاء بحيث تفتح لها النفوس باب القبول بسرعة واول ما يطمئن  
 فيها ان الاقلام منتقة من القصب وهي اوهن من المصارع السيف ومضاه  
 فاحتاج الى تأييدها بما يدغم الشبهة ومحورها في زمرة الأقوال المسلمة فضرب  
 لها المثل في البيت الثاني بالحمر التي هي عصارة العنب وقد امتازت عن بقية  
 المصير بالطفاء نور المقل واطلاق الساكن بحبط في فلاة الهندو خبط عشواء فصارت  
 بهذه الخاصية حقيقة قائمة بنفسها ومالكة لقوة لم تكن في جنبها

وقد يكون المعنى مما تألفه المنقول ولا يتثبت به في سياقه ما يجير السامع  
 الى ارتياب او محمله على انكار وانما يقصد الشاعر الى ايراده في مثال واضح حتى  
 يقع من نفوس السامعين في قرار مكين ومثال هذا قول سيف الدين بن المشد  
 ان ترقى الى المال اولو القضا ل وساخت تحت الترى البغضاء  
 فحباب المدام يملو على الكا س محلا وترب الاقضاء  
 فارتفع الفضلاء الى المراتب العالية وهبوط أهل البغضاء الى ما تحت الترى

ليس في نفسه بأمر يتمجب منه او يتلقى بانتكار لمحاكاة بارتفاع الحباب على وجه الكاس وزول الاقذاه الى اسفله انما كانت مؤكدة له ومنسجمة عن مناسبتة للحكمة والطباقة على سنة الله الجارية بارتفاع العناصر النقية ورسوب الاجرام المتفنة . وما صفت على هذا النمط

لا يألّف المرز شبا لمج في وسن من الخلاعة لا مسمى ولا أملا  
كلا ر يزهو على صدر الفتاة وان دب النحاس الى اجفانها اعترلا

ومن الدواعي الى التخييل تخصيص بعض الساممين او القارئين بفهم المعنى اما لفضل المعية او لان في يده من القرائن المساعدة له على التنبه ما ليس في يد غيره فلو طورك انسان في أمة من الناس اقاموا على فريق من أموالهم رقباء فأردت ان تذكره ان أولئك الرقباء لم يحرصوها بمين الامانة حتى تناولها فرم ملاءوا منها حقائبهم وتروها في سبيل شهواتهم فكتبت اليه على مثال ما كنت قلت

يارياضا خابها الحراس اذ غرقت احداقهم في وسن  
مرقت ربح الصبا منك شدى طاب وانسابت به في الدمن  
لم يستطع فهم ما أردت من الكلام الامن دارت بيدك وبينه تلك المحاورة  
وقد يذهب الشاعر الى التخييل لقصد التهم كما قال المعري يتهم بمن يحكي ان  
أول من شاب ابراهيم عليه السلام

ما اقبح المين قلم لم يشب أحد حتى أتى الشيب ابراهيم عن أم  
كذبتم ونجوم الليل شاهدة ان المشيب قدما حل في الامم  
فكانه يقول هذه الرواية الملتفة ليست اهلا لان تقابل بغير هذا الرذ  
القائم على الخيال . ويقرب من تخييل نجوم الليل بالمشيب قول احمد بن دراج  
القسطلي يصف الجبرة

وقد خيلت طروق الجبرة انها على مفرق الليل البهيم فقير  
وربما لا يمجّد الشاعر داعيا الى مسلك التخييل بمدبسط النفس سوى التنبه  
على ما بين الممانى من المناسبات الخفية او مجازاة البلغاء واقامة الشاهد على  
الحدق في هذه الصناعة ، وما يرمي الى أحدهذين الفرخين ما يمتلئ به الالباب في  
وصف بعض المناظر المطربة كالسكواكب والهدائق او الصناعية كالشمعة والسفينة  
محمد الخضر